تأكيد المدح بما يشبه الذم: **أ.د. سعد التميمي**

أول من تنبه له ابن المعتز فعده في كتابه «البديع» من محاسن الكلام ، وسمّاه "تأكيد مدح بما يشبه الذم" ومن البلاغيين من يسمي هذا الفن البديعي «الاستثناء» ناظرين إلى أن حسنه المعنوي ناشىء من أثر أداة الاستثناء التي يبنى عليها ، ولكن تسمية ابن المعتز له أدلّ في الواقع عليه من تسميته «بالاستثناء».

اولا :تأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان :

١ ـ أولهما ، وهو في الوقت ذاته أفضلهما ، أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم.

كقول النابغة الذبياني : ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب [١]

فالنابغة هنا نفى أولا عن ممدوحيه صفة العيب ثم عاد فأثبت لهم بالاستثناء عيبا هو أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب ، وهذه ليست في الواقع صفة ذم وإنما هي صفة مدح أثبتها الشاعر لممدوحيه وأكدها بما يشبه الذم.

٢ ـ والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له.مثل قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقيا

و قول الرسول(ص) : «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضرب آخر وهو أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولا لفعل فيه معنى الذم ، وذلك نحو قوله تعالى : (وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا). أي وما تعيب منا إلا الإيمان بالله الذي هو أصل المناقب والمفاخر كلها.

فالفعل (تَنْقِمُ) فيه معنى العيب والذم ، والمستثنى بإلا وهو مصدر الإيمان المؤول من «أن آمنا» يتضمن صفة مدح ، وهو في الوقت ذاته معمول الفعل (تَنْقِمُ). فهذا المثال ونظائره مما تأتي فيه صفة المدح الواقعة بعد أداة الاستثناء معمولا لفعل فيه معنى الذم ـ يعد ضربا آخر من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وفي هذا الأسلوب البديعي قد تأتي أدوات الاستثناء من مثل «إلا ، وغير ، وسوى» بمعنى «لكن» التي للاستدراك ، وعندئذ يكون تأكيد المدح بما يشبه الذم فيها من الضرب الثاني الذي يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له. وذلك كقول الشاعر :

هو البحر إلا أنه البحر زاخرا سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

فالممدوح هنا هو البحر ، لكنه البحر زاخرا ، لكنه الضرغام ، لكنه الوبل أي المطر ، فقد شبه الممدوح بالبحر وهذه صفة مدح ، ثم أكدت هذه الصفة بصفات مدح أخرى هي : أنه البحر زاخرا ، وأنه الضرغام شجاعة ، وأنه الوبل أي المطر غزارة. وكل ذلك قد ثبت وتأكد بالاستدراك الذي أزال توهم السامع بالاستثناء لصفات ذم وأحل محلها صفات مدح.

وقول ابن الرومي : ليس له عيب سوى أنه لا تقع العين على شبهه

فجعل انفراده في الدنيا بالحسن دون أن يكون له قرين يؤنسه عيبا ، فهو بذلك يزيد توكيد حسنه.

وقول أبي هلال العسكري : ولا عيب فيه غير أن ذوي الندى خساس إذا قيسوا به ولئام

وقول شاعر : ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وقول صفي الدين الحلي في المعنى السابق :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى : (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً)

والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له.

ومن أمثلته :

قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسيء الأعاديا

ثانيا :تأكيد الذم بما يشبه المدح :وتأكيد الذم بما يشبه المدح كعكسه السابق ضربان :

١ ـ أحدهما أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ، بتقدير دخولها في صفة المدح.

وذلك نحو قول الشاعر: خلا من الفضل غير أني أراه في الحمق لا يُجارى

فنها نفى عن المهجو صفة مدح هي خلوه من الفضل ثم ذكرت اداة الاستثناء غير واعقب بصفة ذم هي عدم مجاراته في الحمق فاكدت صفة الذم التي هي صفة مدح منفية .

٢ ـ وثانيهما أن يثبت للشيء صفة ذم وتعقّب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له. وذلك كقول الشاعر :

لئيم الطباع سوى أنه جبان يهون عليه الهوان

فالشاعر اثبت لمهجوه صفة ذم هي لؤم الطباع ثم بنى عليها باداة استثناء (سوى)صفة ذم ثانية هي الجبن والهوان لتأكيد ذمه . والضرب الأول يفيد التأكيد من وجهين ، والثاني من وجه واحد ، كما مر من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

بلاغة الاسلوبين :بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم أوالذم بما يشبه المدح يرجع إلى أمرين:

1- أن كلًّا منهما بمثابة الدعوى التي أُقِيمَ عليها الدليل والبرهان، وذلك أن المتكلم يستدل على نفي الذم أو المدح في الضرب الأول من كل أسلوب، وعلى إثباتهما في الضرب الثاني، يستدل على ذلك بالتعليق على ما لا يكون وما لا يتحقق له وجود بحال من الأحوال فعندما نقول :لا عيب فيك سوى أنك شجاع، فإننا نستدل على نفي العيب عنك لا عيب فيك سوى الشجاعة إن كانت الشجاعةُ عيبًا، وكون الشجاعة عيبًا بكونك شجاعًا محال، فثبوت العيب لك محال.

2- ما فيهما من المفاجأة والمباغتة للسامع؛ فإن المتكلم عندما ينطق بأداة الاستثناء أو الاستدراك، يتوقع السامع ويدور في خَلَده أن المستثنى أو المستدرك فيكون مغايرًا ومخالفًا للمستثنى منه، كما هو المألوف من هذا الأسلوب، وعندما يأتي المستثنى مؤكِّدًا

للمستثنَى منه وعلى خلاف ما كان يتوقع السامع، تكون المفاجأة والمباغتة التي تكسب المعنى طرافةً، وتثير في النفس تنبيهًا، وبهذا يتأكد المدح في أسلوب تأكيد المدح، ويتأكد الذم في أسلوب تأكيد الذم